نـافـذة

نزعةٌ إلى الإنسانية

الواقعية العاقلة، لأنّ الحزن والغموض اللذين يتفرد الإنسان بامتلاكهما يهدمان الحدود، ويثيران التشاؤم والصدود، بدلاً من ارتسام البسمات والسعادة على الشفاه والوجوه، إضافة إلى التوق الدائم إلى مثلٍ أعلى، وعلى الرغم من عيشه في عالم واقعي، إلا أننا نجده نزّاعاً إلى أن يحلم بعالم آخر من الفرح والوضوح والجمال والكمال، وأيضاً نجده يجمع إلى السّأم والضجر خيالاً يسعى من خلاله للخروج مما هو فيه.

ألا تتوافقون معي في أن الإنسان بمجمله يود أن يكون غير ما هو عليه، بحكم أن سمة إنسان تسمح بالتخيل وتحويل الأحلام بعد صياغتها إلى وقائع، فكلما تعاظمت أفكار الخيال ازدادت همومه، وتعاظم استياؤه، وللإنسان في مجموعه مطامح موزعة بين الأفراد والمجتمعات والأمم، وفي كثير من الأحيان تكون جديرة بالإكبار، إذا اتصفت بالثقافة الإنسانية والوطنية الحاملة للنبل والشرف والوفاء بالعهود، هذه التي تُعمر الأثر، وتترك أطيب الثمر، الذي يتغلغل في الذاكرة، لأنه على تضاد مع الغدر ونكث العهد، الذي يضعف الثقة بين الناس.

من أجل تطوير النزعة الإنسانية، إنني أتجه معكم إلى امتلاك المعرفة، ولو بطرف من كل علم، واكتساب لمعة من كل لون، ويعود شم الأزاهير والورود، أي تذوق الجمال وفهم كنه الموسيقا، التي تفي من دون معرفة العزف على الأوتار، فبهذا وذاك ترقّ النفس وتتقوى الذات، ويتحرك الفرح، ليتحول الإنسان إلى كائن إلهي في عالم تسوده المادة والخطيئة.

السؤال الدائم الذي يكاد يكون من المتعذّر الإجابة عنه، يكمن في من نحن؟ وأقصد المتكونين من الجنس الإنساني، لماذا كان الإنسان أولِ مخلوق غامض وعبوس مزمجر ومتمرد حزين، كما أنه متفرد عن باقي المخلوقات، التي لا تعرف سوى حركات القطيع، ومن هذا الجنس حضر الإنسان الرضي المشاكس، الفقير والغني، القائد والتابع، وهنا أقول: إننا على أتمّ اليقين في أننا فقدنا شيئاً من سبل السعي المجرد وراء النجاح، أو من البناء، أو حتى من قدرتنا على بناء تكويننا، وهذا يولّد لنا سؤالاً آخر، هو ماذا فقدنا؟ أو أين النقص الحاصل فينا؟ وهنا تظهر إجابة غير واضحة وقابلة للنقاش، فأثناء بحثنا عن النقص ندرك أننا أضعنا بعضاً من أنفاسنا، هذه التي تنسينا كمية الخطر المحدق بنا، وتدخلنا في دائرة الحزن والغموض، حيث نعود إلى الذاكرة المسكونة فيها طبيعتنا الإنسانية، التي تطالبنا بجرد الخسائر نتاج لهاثنا خلف الأحلام المحمولة على أجنحة الرياح السريعة، التي لا تتقبل المقاومة، وتسرّع دخولنا إلى عمليات المساومة.

إذاً كيف يكون السبيل إلى أن ننظم حياتنا البشرية التي لا مديد لها، ونقدر أن نعمل في سلام، ونصبر من أجل أن تكون نتائج إيجابية، ونحيا بسعادة، هل ممكن هذا؟ ألا يتضح للعاقلين أن المادة الجاذبة هي التي تحكم العقل؟ فهي التي تثير مشاعر الحب والكراهية والقتل والفعل ورد الفعل، وأن أكثر الناس إنسانية ليسوا بفضل عقلانيتهم، لكن لأن لا عقلانية تحكمهم، أي تمردهم عليها ورفضهم أو كبحهم للشهوة المتجهة إليها.

هل نحن مؤمنون؟ تصدق الأقوال أنّ لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له ولا نجاح، إن لم يجهد من يريد الوصول، وهنا أؤكد أن لا إنسان كاملاً، فكل فيه نقص الجاد، يسعى لإكماله رغم أنّ الوصول إلى ذلك صعب المنال.

هل الإنسان حقيقة مفتاح الوجود وقفله؟ وهل يقدر على أن يتفكر بحريته التامة؟ أم إنه يشعر بأنه مراقب من كل ما يحيط به؟ إذاً متى تصادر الأفكار؟ هل صحيح لحظة اصطدامها العلمي أو السياسي أو الديني بالآخر المعترض عليها؟ أليس الآخر إنساناً ومركزاً؟ ما معنى مملكة الفكر؟ أليس فيها يتم استخراج النتائج المفيدة والمؤذية في آن؟ أم نقول: إن فكر الإنسان حر، ما دام بعيداً من المماحكات السياسية والدينية، وبقي ينتج في إفادة الآخر، فلا يقع عليه اتهام، ولا يجرم أو يدان؟

هل يقدر الإنسان الهروب من حزنه، ويعتبر أنّ في صمته مصدراً لنشوته التي تطهره من آثامه؟ هل يستطيع تمجيد الصمت؟ لأن من لم يكن به يملؤه الفضول، وتركبه الأسئلة، وتشغله عما يريد مفردات أريد المزيد وعدم الاكتفاء، فيقع فيما لا تحمد عقباه.

هل نستطيع أن نؤسس تاريخاً جديداً، نبدؤه بالنزوع لتأسيس إنسانية جديدةٍ؟ حيث كنا وما زلنا حيارى في معرفة الطريق إليها، إنما حريٌ بنا أن نعتبر من التجارب السابقة التي عاناها أسلافنا، وما عاصرته أجيالنا.

هل أغالي في الافتراض، وأنا أبحث في الغايات والأهداف، ونسبتها إلى الحياة؟ فمجرد محاولة البشر الإجابة عن هذا الافتراض يتشكل النزاع حوله، وتنشأ الحيرة تجاهه، حيث تنقسم البشرية إلى قسمين، الأول هدف إلهي أقامه الله لجماعة من البشر، والثاني هدف إنساني يتعين على البشر أن يقيموه لأنفسهم وفيما بينهم، وليس في عقلي أن أحاكم القسم الأول من السؤال، لأن كل شيء يجول في خاطر الله، إنما يفيض كضرورة من عقولنا نحن، وهو تخيل من عقلنا لما هو موجود في عقل الله.

أما القسم الثاني فهو نقطة الخلاف والاختلاف الدائمة حول غاية الحياة الإنسانية، وما يجب أن تكون عليه، وهنا أوضح أنه لا تشغلني كلمات الحزن أو الفرح أو السعادة، بقدر ما يشغلني موضوع الخلاص الإنساني، الذي لن نصل إليه إلا بالخلاص، فالسعادة الإنسانية حالة حسية فردية، تسكن البيولوجيا، وهذه يؤيدها العلم تأييداً بالغاً، وهذا يدعونا للتفريق بين سعادة العقل ومباهج الجسد، التي ترسم ألوانها عليه.

هل يستطيع أي إنسان أن يحب امرأة روحياً، من دون أن يحبها جسدياً؟ مؤكدٌ لا، فالحب علاقة مزدوجة بين المادي واللامادي، فالحب يشبه الجنون، والجنون يعبث بالعقلانية، ليغدو الإنسان عاهراً، إن لم نكن نحن الإنسان كذلك فمن نكون؟ والعهر لا أعني به الدعارة، فكل متميزٍ عاهر، وإلا لما كان هناك إبداع، فالإبداع شطح، والشطح خروج عن المألوف، والدعارة غير الزنى، والزنى كل ما أخذ غصباً، أو بطريق الخداع والمكر والمراوغة، وبهذه الكلمات القذرة يغضب الإنسان ويحزن ويفقد سروره ومرحه وسعادته، وإن حدثت فستكون صفراء لا نقاء فيها، لأنها تفتقد الحب، ومعه يجب أن يتحرك الوجدان الذي يترجم التشارك في حياة المجتمع، وتحمله لأعباء التقدم والتطور وتجسيد الإحساس والشعور بالمسؤوليات الجسام.

هل يمكننا تحقيق الامتزاج المدهش بين الولاء للجسد ولغة الروح؟ وأقصد بين الروحانية المؤمنة البعيدة من التزهّد والمادية البريئة، التي تبدأ بالشهوة وتنتهي باللقاء الأمين الذي ينجز الامتزاج، حيث تتعانق معه الحواس والروح، في تناغم واحتواء يحضر من رغبة حواء ورجولة آدم الفنان.

هي نزعة إلى إنسانية جديدة واقعية، يكون لإلهٍ في جوهرها، كما أراد وأردنا، كي نرى الحياة، ونعمل بجد وإخلاص لها، نقارب فيها مفاهيم سهلة ومركبة، تزيد التأمل وترفع الوعي والإدراك، وتفسح المجالات لولادات فكرية نوعية، تأخذ بنا إلى بداية، بعد أن حدث ما حدث من اضطراب في العقول، أظهرنا أننا نحيا عصور ما قبل المعرفة؛ أي في مرحلة إلشيئية، التي كانت تساوي بين جميع المخلوقات الحيةٍ، وأخص منها الدابة على الأرض، طبعاً من الدبيب، إلى أن عرفها الإنسان، وعرف أنه إنسان، وعندما تخلى عن إنسانيته انتقل إلى بشريته، إلى منطق البشر، الذي يعني بدء شر، هل لنا أن نذهب لنحاكم عقولنا، ونستوي إلى طريق؟

د. نبيل طعمة

النقد الأدبي بين الحضور والغياب في الصحافة المقروءة

عندما يكون الحديث عن الأعمال الإبداعية مجرد انطباعات عفوية غير دقيقة

جُمان بركات

الهدف الرئيسي للنقد الأدبي بالدرجة الأولى هو تحليل النصوص وقراءتها بعمق يقوم به المختصون في مجال النقد، ويفترض أنهم يقدمون –من خلال تناولهم لهذه الأعمال– تقويمات وأحكاماً تصنيفية تساعد القارئ على اكتشافٍ الأسرار الكامنة بين السطور وخلفها. أما في مجال الصحافة المكتوبة المعاصرة فإنه يقتصر، في الأغلب، على التعريف بالعمل أو الكتاب وبمؤلفه مع ذكر بعض الأمور التي تخص هذا الجنس الأدبي أو ذاك، وقد يذكر بعض الأعمال السابقة للمؤلف نفسه، وبعض أعمال معاصريه أو من يشترك معه في النوع الأدبي، وقليلاً ما يقدم أحكاماً نقدية مهمة لها طابع الحرفية والتخصص. وربما يرافق هذا المفهوم شيء من الإثارة لدى القراء عندما يعرض قضايا قابلة للمناقشة ومثيرة للجدل وتُستعمل أيضاً للدلالة على كشف زلات الآخرين وأخطائهم وعيوبهم.

يُعرف مفهوم النقد على أنه التعبير بكل الأشكال والوسائل بما تتضمنه المجهودات والإبداعات والأفعال والأقوال البشرية من إيجابيات وسلبيات، فهو يكشف عن مواطن الجمال والقبح في محاولة لإثارة شعور بأن ما يقال صحيح. في الواقع يختلف النقد من شخص إلى آخر فما يراه البعض سلبي قد يراه آخر إيجابياً والعكس صحيح، وقد يكون النقد لجميع الإنتاجات وفي المجالات كافة كالأدب والشعر والسينما والفنون والعلوم والآراء السياسية والاجتهادات الدينية والمقالات الصحفية وغيرها.

شروط وقواعد

من المعروف كما في أي مجال أدبي أو علمي أن يكون هناك شروط وقواعد تحدد وتؤطر هذه المجالات، والنقد لا يُستثنى من ذلك، فمن أولها أن يكون الناقد على قدر وافر من المعرفة بمجال النقد ويتمتع بثقافة واسعة وشاملة تصل إلى علوم مختلفة، وأن يملك البصر الثاقب الذي يكون خير معين له على إصدار الحكم الصائب، فالأدب ونقده ذوق وفن قبل أن يكون معرفة وعلماً، وعاطفة الناقد أو توجهاته الأيديولوجية أو السياسية هي الدافع المباشر لقول ما يجب قوله وتحديد موقفه تجاه ما يعرض، أما خياله فهو وسيلة يستطيع الناقد توصيل صورة معينة تثير التساؤل في نفس القارئ من خلال لغته الناقلة لصورة ممتلئة بالحقائق.

في الواقع، النقد هو كشف عن مواطن الجمال أو القبح في الأعمال الأدبية، وكل مبدع ومنتج للنص يبحث عادة عن رد فعل القارئ العادي من جانب والدراسات الأدبية المتخصصة من جهة ثانية، وعلى المبدع الاعتراف بتجرد وشفافية بأنه يبحث عن صدى إبداعه لدى الآخرين من خلال النشر أولاً، وبعد ذلك عبر متابعة ردود الفعل حيال النص المنشور.

أين النقاد؟

بغض النظر عن شخصية المعلق إلا أننا يمكن اعتباره جزءاً من نقد حتى لو تحدث عن النص الأدبي أو المادة الفنية بانطباع عابر أو عميق، بطريقة عفوية أو دقيقة، بصورة ودودة أو كارهة، إلا أنه لا يمكن أن يكون نقداً بصيغته الإبداعية، فالنقد إبداع آخر وهو المهمة التي لا يقدر عليها سوى نخب قليلة عرفوا ببحثهم وتخصصهم وسعة اطلاعهم، فهل موجودون في وقتنا هذا على صفحات جرائدنا المحلية؟ وهل هيبة كتاباتهم ما زالت موجودة؟ من المتوقع خلال فترة الأزمة السورية أن الرأي الغالب والواضح هو غياب الكتابات النقدية الأدبية عن الصحافة السورية، إضافة إلى غياب كبير للدراسات النقدية المعمقة أو التخصصية عن صفحات المجلات النقدية التي تُعنى بالمجال الأدبي بمختلف أصنافه. لكن هذا الواقع لا يعني الغياب الكلي، فهناك من يسعى لتقديم مقالات نقدية، بالمقابل هناك من يستغل موقع الصحيفة لتقديم أفكار لها طابع المصالح الشخصية أو النفعية، ويقلل من أهمية نص أدبي ما أو مادة درامية وفنية بعد أن تحصل إحداها على صدى جيد من النقد الإيجابي، فنجد بعض ما يسمى القراءات النقدية يتحدث عن كل ما يتعلق بالمؤلف وظروف كتابة العمل الأدبي والشكل الذي كان ينبغي أن يكون عليه من دون الخوض في النص من الداخل بصورة تدفع للتوقف والتفكير: ماذا يريد أن يقول وعن أي نص يتحدث؟! بعد قراءة المادة النقدية يتبين أن للكاتب مآرب أخرى وهو السير عكس التيار للظهور والتباهي بالاختلاف، فهنا يدعو للتساؤل «أين النقاد الحقيقيون»، و«من» هم؟

سلطة مواقع التواصل

في الوقت الذي يمكن القول فيه: إن النقاد الحقيقيين غابوا عن الساحة الأدبية وهناك بالمقابل ظهور مواقع جديدة لم تكن معروفة سابقاً، وقد أتاحت للجميع فرص التعبير عن آرائهم وتقديم ما لديهم من أفكار حول الإبداعات الأدبية والفنية بمختلف أشكالها، والمقصود بذلك مواقع التواصل الاجتماعي والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، فمثلاً أثناء طرح مادة أدبية أو عمل درامي أو فيلم سينمائي أو عرض مسرحي يسهم كثيرون في تكوين الرأي العام عن هذا العمل الذي ظهر مؤخراً أو تم عرضه حديثاً، ويستطيع أي شخص إبداء رأيه بمنتهى الجرأة والصراحة من دون إعلان شخصيته الحقيقية، وهنا يكون التساؤل: ما سبب غياب النقاد المتخصصين وظهور، بل انتشار أفكار تصدر عن أناس ربما لا علاقة لهم بالنقد الأدبي أو الفني؟ بمعنى انحسار مساحة النقد التخصصي لمصلحة أقوال ووجهات نظر تكتسح المواقع العامة والصفحات الشخصية الإلكترونية.

حضور خجول

السؤال الذي يطرح: هل يمكن للجيل الشاب إعطاء أفكار جديدة يستطيع من خلالها تطوير وتجديد الأفكار المطروحة سابقاً والتي كانت ممنوعة أو ضمن دائرة الحظر مع أنها خرجت عن مسارها؟

أما بالنسبة للنقاد فيقول الناقد أحمد هلال عن غياب النقد الصحفي في صحافتنا: إن للسؤال ضفافه المعرفية الفاحصة لحركة النقد ومن ثم غيابه أو تغييبه، وذلك ما يحملنا القول: إن النقد بوصفه فعالية معرفية تستلزم مادة إبداعية لتستنبت منها أسئلتها المؤسسة بخطابها. في الواقع، يحتاج النقد إلى حوامل ومؤسسات، بل ثقافة لدى الناقد، لأن ذلك يتصل اتصالاً وثيقاً بصناعة المعرفة وإنتاجها، فهل تهتم وسائل الإعلام المكتوبة بالفكر النقدي ونشره مثلاً؟، ذلك سؤال حاسم يعني الثقافة بكل تجلياتها، وإن حضور أشكال بعينها من المقاربات على الرغم من فائدته في تحقيب اللحظة الإبداعية، إلا أنه غالباً ما يأتي مفصولاً عن إستراتيجية تعني الثقافة والفكر النقدي بآن معاً.

وأضاف هلال: نعترف بأن ثمة حراكاً نقدياً، قد يشي بحركة نقدية تستعيد عافيتها وتضاعف أسئلتها وعلى الوسائل المقروءة أن تعيد الاعتبار إلى النقود الأصيلة التي تمارس عبرها، بعيداً من ثقافة الاستسهال والارتجال والنصوص النقدية العابرة، فلا بد من معايير ناظمة تضبط الأداء النقدي وتعيد للنقد ألقه في الصحافة الأدبية بشكل خاص، واليومية منها على أهمية ما تقدمه إلا أنها مطالبة بالنوع وليس بالكم، ما يخلق فاعلية قرائية كما هو النقد بوصفه فاعلية قرائية.

وبوسعنا إلا أن نقول: إن ثمة غياباً كاملاً أو غياباً ناقصاً إنما ما بين بين، مع تواتر، أطياف لنقود جلها يعكف على المتابعة وهي شأن يومي، أو الإضاءة نظراً للمساحة المعطاة، فكيف نعيد الألق للنقد في الوسائل المقروءة، بعيداً من هجرته إلى صفحات التواصل الاجتماعي متطيراً من القيمة والمعيار إلى الذائقة والانطباع، فلابد إذاً من تحليل أسباب الغياب أو التغيب أو الحضور على استحياء بدراسة فاحصة حتى يصبح حضوراً ناجزاً، يعني سيرورة الإبداع، وثراء المعرفة في عصر رقمي يسعى إلى الترابط رغم تشظي المعرفة، وتفاوت الاختصاص، وحضور قليل وغياب أكثر، ربما يعبر عن واقع الثقافة بوصفها بنية وذهنية وأنساق وواقع متغير متسارع.

المقاهي الأدبية في بغداد

شكلت الذاكرة الثقافية والاجتماعية والسياسية منذ بداية النهضة الفكرية

د. رحيم هادي الشمخي

كثرت المقاهي الأدبية في بغداد أواخر الأربعينيات من القرن الماضي وأصبحت ظاهرة اجتماعية عراقية، حيث اللقاءات اليومية بين الأدباء والشعراء وكاتبي القصة، كتاباً وشعراء ونقاداً وباحثين وغيرهم.. تدور بينهم النقاشات اليومية الجادة، بينما يشترك الكثير منهم وبشكل مستمر بمختلف الشؤون الثقافية والسياسية.

شارع الرشيد في بغداد شارع المقاهي والمثقفين

كانت المقاهي الثقافية المكان المناسب للمثقفين والسياسيين وشرائح اجتماعية واسعة من أبناء الشعب، وأصبحت عبارة عن مدارس تعلم فيها الأدباء والشعراء الكبار الكثير من العلوم والمعارف من خلال الحوارات التي تعقد فيما بينهم، وهم يجلسون على أرائك خشبية أمام السماورات التي يغلى فيها الماء ويخدر منها «الشاي المهيل» وشاي الدارسين وشاي الحامض وشاي الكجرات الحامض وشرب الأركيلة لدرجة أن قسماً منهم يلقي أشعاره وهو يلعب الطاولة أو الدومينو، ولم توقف ضوضاء زبائن المقاهي ولعب الدومينو والطاولة وصخب المارة وأبواق السيارات، هذه المقاهي من الحوار الجاد المتبادل بين المثقفين والتباحث في أمور الحياة الأدبية والسياسية وتفاصيلها.

لقد شكلت المقاهي الأدبية، ذاكرة للثقافة العراقية، وأصبحت الوسط الذي يخرج منه ألمع المثقفين العراقيين الذين ساهموا بنشاط في المشهد الثقافي بإبداعاتهم الخلاقة، فلقد لعبت المقاهي الثقافية دوراً ثقافياً واجتماعياً وسياسياً منذ بداية النهضة الفكرية وأصبح لها دور مهم في حياة المثقف العراقي، حيث خرجت منها المحاولات الأولى لتطوير القصيدة العربية والشعر والمدارس الحديثة للفن التشكيلي والنحت.

ومع تقدم الوعي الاجتماعي والسياسي وتأسيس الأحزاب السياسية الوطنية العراقية وبتأثير الثقافة الغربية واليسارية وخاصة بعد ثورة عام ١٩٥٨ التي انتشرت في العراق في تلك الفترة أصبحت المقاهي مراكز تجمع لرجالات الأدب والسياسة والفنون على حد سواء، وأصبحت أشبه بالأوكار لنشر المدارس الفكرية الجديدة والأفكار السياسية الوطنية التي كانت تخشاها الحكومات العراقية المتعاقبة في تلك الفترة، حيث كانت الوظيفة السياسية لهذه المقاهي هو التصدي لمخططات الاستعمار البريطاني، بوصفها مكان تجمع لأغلبية المثقفين من شعراء وأدباء وفنانين وسياسيين.. لذلك ارتبطت المقاهي في العراق بأبرز الأسماء الأدبية والسياسية والاجتماعية المعروفة.

وكانت أكثر هذه المقاهي في «شارع الرشيد» تيمناً باسم الخليفة العباسي هارون الرشيد، وبمرور السنين أصبح لهذا الشارع حصة الأسد من المقاهي الأدبية الشهيرة، إذ قامت على جانبيه كل من مقاهي: الزهاوي، حسن عجمي، الواق واق، البرازيلية، ياسين، شط العرب، البلدية، البرلمان، المعقدون، الشابندر، الرشيد ومقهى الغناء أم كلثوم، سمر وغيرها الكثير، واعتبر هذا الشارع ومقاهيه المنتشرة على أماكن مختلفة من جانبيه المكان الذي تنطلق منها تظاهرات الأحزاب والقوى الوطنية العراقية والمثقفين والسياسيين ضد الهيمنة البريطانية والحكومات المتعاقبة طوال سنوات طويلة حتى قيام ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨، ومن أبرز الشخصيات الثقافية التي غذت الحماس الوطني وألهبته مع بدء ثورة العشرين في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ الشاعر والخطيب المعروف محمد مهدي البصير، وفي الثلاثينيات من القرن الماضي كان ينطلق من مقهى «عارف آغا» المثقفون والوجوه الوطنية المعروفة ليشاركوا في التظاهرات الوطنية والاحتفالات التي يحييها الشاعر معروف الرصافي، وكثيراً ما غنت كوكب الشرق أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وفريد الأطرش ومحمد القبانجي في مسارح هذه المقاهي التراثية وفي كل مقهى خشبة مسرح «التخت» البغدادي الذي تحيا الحفلات البغدادية عليه، كما ألقى شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري والرصافي والزهاوي وغيرهم من الشعراء القصائد الشعرية في هذا المكان، ولا ننسى أن الشاعر أحمد رامي قد نظم قصيدة للسيدة أم كلثوم من مقهى «البرلمان» في شارع الرشيد ولمقاهي بغداد طعم خاص في الثقافة والأدب والإبداع، وقراءة الصحف والمجلات العربية.

الأب بين المفهوم والأدب

أيمن الحسن

ما من أحد يناقش في دور الأم الكبير في تنشئة أطفالها وتربيتهم، وضرورة تبجيلها وحسن مصاحبتها، كما جاء في الحديث الشريف الذي حفظناه منذ أيام الدراسة الابتدائية، من أحقُّ الناس بمصاحبتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟، قال: «أمك».

بعدها، وأخيراً قال: أبوك.

أي إن الأب أتى في المرتبة الرابعة من وجوب المصاحبة.

بعد ذلك قرأنا في الكتب المترجمة عن صورة الأب الظالم القاسي «الديكتاتور» حسب المصطلح المتداول ولاسيما عند «كافكا»، و«جان بول سارتر» وغيرهما.

إلى أن جاء بعض المفكرين العرب، وحدثونا عن المجتمع البطريركي، حيث يلعب الأب دور المستبد الجبار بأطفاله وأسرته.

وقبل ذلك كله حضر دور الأم المؤثر في طفولتنا المبكرة، ولاسيما إذا كانت علاقتها بزوجها غير سوية، أو لا صحية، مع العلم أنه ليس دائماً هو السبب في اضطراب العلاقة الزوجية، ولكن الأم – في أحيان – تؤدي دورها بطريقة خاطئة، وتجعل الأبناء يكرهون والدهم – لفظ «الوالد» من قبيل المجاز، فالأم هي الوالدة الفعلية، والأب يسمى والداً على الرغم من أنه لم يلد، ولا هم يحزنون – ولأنه مشغول بالعمل خارج البيت أغلب الوقت، فهي تقوم عادة بغسل أدمغة أبنائها بأنها مظلومة، تعمل كل شيء، بينما هو يعيش على كيفه وهواه، هذا إذا لم تتهمه باتهامات شتى مثل «عيونه بيضاء» أي يدور على «النسوان» ليل نهار، وقد تقول عنه: «إنه بخيل، يكسب المال الكثير من عمله، يا أبنائي الأعزاء، لكنه لا يعطيني إلا النزر اليسير كي أصرفه عليكم».

إلى آخر هذه الأسطوانة المشروخة التي غالباً ما تكون حفظتها من أمها عن ظهر قلب.

وغير نادرات هن الأمهات اللواتي يقلن لأولادهن:

– إن «أبوكم» يعمل بجد ويتعب ويشقى كي يؤمن لكم ما تحتاجونه، وإنه – أعانه الله – مرهق دائماً، فإن كان ثمة مشكلات بيننا، فهذه مسألة نحلها أنا وهو. لكن عليكم أن تطيعوه وتحترموه، فهو والدكم، ويكاد يزهق روحه من أجلكم.

فهل ترانا زدنا في تبجيلنا للأم إلى درجة القداسة، وكثير من الأمهات يستأهلن هذا، وظلمنا الطرف الآخر، وهو الأب المسكين؟!

وبناء على الدور الكبير المعطى للأم في مجتمعنا ألا نستطيع القول:

– إن بعض الأمهات كن وراء جيل من شبابنا الذين «انضربت عقولهم» أي «غُرِّر بهم»، فحملوا السلاح ضد إخوانهم في الوطن تحت مزاعم شتى؟

ولكن هل نعتب على أم جاهلة إن خرجت أبناء جاهلين مثلها؟ أليست الأم مدرسة؟ وهل كل المدارس تخرج طلاباً واعين متحضرين؟

حديث يطول أختمه بالسؤال:

– هل ننتظر – نحن الآباء – أن يكبر أبناؤنا، ويصبحوا آباء حتى يدركوا الحقيقة، ويعرفوا قيمة الأب وتضحياته؟

أذكر من القص: «أتمنى أن تكون حبيبتي، أقصد زوجة المستقبل، ليست قاسية مثل أمي»، فانزعج أحد النقاد وقال:

– لا تقل كلاماً كهذا عن الأم.

وكأن القداسة مرتبطة بالأم دائماً وأبداً، ولا توجد أمهات قاسيات وظالمات، بل مخطئات أيضاً بحق أزواجهن وأبنائهن، بينما الأب غير ذلك، وربما يكون «منجوساً»، حسب التعبير العامي.

أخيراً أزعم أن هذه التربية التي حيدنا بها الأب عن دوره في التربية والتوجيه هي التي أوصلتنا إلى ما نحن عيه، فما أحرانا أن نقول بموضوعية، وبلا مواربة:

– الأب شريك أساسي في عملية التربية، ولئن كانت الأم ربة الأسرة، فإن الأب رب البيت كله.